

تقرير فينوغراد وبنية العقل الإسرائيلي

2007/5/17م

الدكتور محمد شقير

قيادة فاشلة وحرب فاشلة هما سمة تقرير لجنة فينوغراد حول حرب لبنان الثانية، هذا الفشل الذي اقتضى اجراء مراجعة نقدية تقوم بها لجنة التحقيق فيما سمي اخفاقات حرب لبنان الثانية.

السؤال المطروح حالياً هو هل هذه المراجعة النقدية هي مراجعة لعمل محدود هو تلك الحرب على لبنان، أم أن هذه المراجعة يمكن أن ترتقي إلى مراجعة نقدية للعقل الإسرائيلي نفسه، وما ينتج هذا العقل من قرارات ومنهجية للتعامل مع الاخر في هذه المنطقة أو غيرها؟

وإذا أردنا توجيه السؤال بطريقة مختلفة، يمكن القول إن الخلل الذي أشار إليه التقرير هل هو مجرد خلل تقني وعملي في إدارة سياسية أو عسكرية لحرب محددة، أما إن هذا الخلل (التقني) يكشف عن خلل أعمق في بنية العقل الإسرائيلي؟ أي إن هذا الخلل هل هو مجرد خلل تقني أم هو خلل بنيوي؟

إن ما يريد أن يقوله التقرير هو وجود أكثر من خلل تقني ومهني وعملي في إدارة المعركة، وهذا ما أدى إلى الهزيمة، لكن ما نريد أن نقوله هنا هو أن هذا الخلل التقني أو المهني أو العملي ليس إلا تعبيراً عن خلل أعمق في بنية العقل الإسرائيلي، هذا الخلل البنيوي الذي يتبدى على شاكلة خلل مهني أو اخفاق عملي أو أخطاء في عملية الإدارة العسكرية والسياسية، والذي لن يكون من السهل علاجه، وإن أمكن علاج بعض الخلل المهني أو الأخطاء في الإدارة السياسية والعسكرية، لأن الخلل البنيوي يكمن في طبيعة المجتمع الإسرائيلي ومفاهيمه وميوله ونظراته إلى مجمل القضايا والأمور؛ وهو ما ينعكس على الجيش الإسرائيلي والإدارة السياسية والعسكرية للمعارك والحروب.

إن من الأسئلة التي تطرح هنا أن الجيش الإسرائيلي ومن ورائه المجتمع الإسرائيلي هل يملك الإرادة القتالية الجادة، والعقيدة القتالية الصلبة، والروح القتالية العالية، التي تدفعه إلى الثبات والتفاني والتضحية من أجل النصر وتحقيق أهداف أية معركة أو حرب يخوضها؟ أم أنه جيش يعتمد على تفوقاته العسكرية وقدرة تحصيناته على حمايته، بحيث إذا أمكنت مواجهة التفوق العسكري وخرق تحصيناته فإنه سوف يؤول حتماً إلى الهزيمة؟

لقد أثبتت تجربة الحروب المتكررة وتحديدًا تلك التي خاضتها إسرائيل في لبنان مع المقاومة الوطنية والإسلامية، أنه إذا ما أمكن التفوق على الآلة العسكرية الإسرائيلية، فإن هزيمة إسرائيل تصبح أمراً متاحاً، وهذا ما شهدت به الحرب الأخيرة على لبنان والتي أفضت إلى انتصار المقاومة.

وهو ما يدل على أن المشكلة دوماً لم تكن في قوة إسرائيل، بل في ضعفنا نحن، وإذا ما استطعنا أن نكون أقوياء، فعندها لن تبقى المعادلة نفسها قائمة، وسيبدأ عصر هزيمة إسرائيل.

هل يؤمن المجتمع الإسرائيلي والجيش الإسرائيلي بعدالة القضية التي يقاتل من أجلها؟ إذ إن اعتقاد المحارب بقضيته وعدالة هذه القضية، هو ما يدفعه إلى القتال والاستبسال في ساحة المعركة، وإلى الثبات والتضحية؛ أما إذا لم تكن هناك قضية، أو كانت هذه القضية قضية غير عادلة، وتفتقر إلى بعدها الأخلاقي والقيمي، فلن تجد ذلك الدافع لدى الجندي للقتال. ولن تجد لديه تلك الحماسة لخوض غمار الحرب، ولن يكون لديه ذلك الاستعداد للتضحية والثبات، وسوف يفتقر الجيش عندها إلى إرادة النصر.

إن العقل الإسرائيلي هو عقل غير متشبه بقضية ليقاتل من أجلها، إن حروب إسرائيل تفتقد إلى مبررها الأخلاقي وتفتقر إلى أساسها القيمي، ولذا فإن هذا الخواء الأخلاقي والضعف القيمي، هو الذي يعمل على إضعاف الدافع القتالي، ويوهن إرادة النصر، لدى الجيش الإسرائيلي والمجتمع الإسرائيلي، وتالياً لدى الإدارة السياسية والعسكرية للمعارك والحروب.

لقد قامت إسرائيل على الاغتصاب والاحتلال، واستمرت بالمعارك والحروب، وهذا ما أشعر الكيان الإسرائيلي بأنه يقف على أرض غير مستقرة، وأنه يقيم في محيط لا يتقبله، وهذا الشعور بعدم الاستقرار القومي والوجودي، سوف يؤدي إذا ما تفاقم حده وطال أمده إلى اتعاب المجتمع الإسرائيلي وارهاقه، وسوف يتحول إلى مجتمع يفتقر إلى الشعور بالأمان والاستقرار، ويفتقد الأمل بالمستقبل، ويخاف على وجوده ومستقبله، ليتحول بالتالي إلى مجتمع متعب واهن العزيمة.

لقد أصاب المجتمع الإسرائيلي مرض القلق الوجودي، فهو بعد أكثر من نصف قرن من الحروب لم يصل إلى مرحلة من الاستقرار القومي؛ إنه كيان يشعر بغرته عن المنطقة، وعدم تقبل محيطه له، لأنه فرض عليه بالقوة والغلبة، ولم ينجح نتيجة صيرورة تاريخية اجتماعية طبيعية؛ لقد أدرك الكيان الإسرائيلي ذلك وأدرك أن استراتيجية القوة والردع هي التي تحافظ على بقاءه، لكن خطورة هذه الاستراتيجية أنها سيف ذو حدين، فهي إذا ما احتلت يوماً سوف تؤدي إلى تهديد أساس الكيان وتعريض وجوده للخطر.

يمكن لكيان ما أن ينجح بالقوة والغلبة، وأن يستمر لفترة ما كذلك، لكنه لا يمكنه أن يعمر طويلاً، إذ أن معادلات القوة والضعف ليست ثابتة، كما أن إرادته القومية ومناعته القومية لا بد أن تؤول إلى الضعف والوهن، ويبدو أن الكيان الإسرائيلي قد وصل إلى مرحلة وهن الإرادة القومية والانتماء القومي، وهذه المرحلة لها عوارضها، والتي منها ضعف الإرادة القتالية، وإرادة التحدي القومي لدى المجتمع، والاستعداد للهجرة المعاكسة من الكيان الإسرائيلي إلى خارجه عند استشعار أي خطر جدي، أو تهديد يمكن أن ينال ذلك الكيان.

لقد كشف التاريخ زيف المبررات التاريخية والدينية لولادة إسرائيل، وتبين أن إسرائيل تقوم فقط على غلبة الالة العسكرية، وأنها لا تمتلك أساساً أخلاقياً لنشوتها واستمرارها، وهو ما يسهم في اضعاف الشعور الأخلاقي بضرورة القتال من أجل الوطن والأرض التي قد يكون هناك أساساً خلل في الشعور بالانتماء إليها، وهو ما سوف ينعكس على الأجيال اللاحقة

في المجتمع الإسرائيلي، التي لن تبقى متمسكة بالكيان الإسرائيلي ومخلصة له، كما كان عليه الحال لدى الجيل الأول المؤسس لذلك الكيان.

ولذا ما ينبغي قوله هنا إن تلك الاخفاقات (الهنيمة) التي يتحدث عنها ذلك التقرير تكشف عن أزمة بنيوية أعمق، يعاني منها العقل الإسرائيلي، هي أزمة الخواء الأخلاقي ووهن الإرادة القومية، والقلق الوجودي المستحکم ببنية العقل الإسرائيلي، هذه الأزمة التي أضعفت الجيش الإسرائيلي وأصابته إدارته العسكرية والسياسية بأكثر من خلل، ظهر على شكل اخفاقات قاسية وهزيمة بينة في حرب لبنان الثانية، وفي انسحاب إسرائيل في العام ألفين، وفي حروبها الدائمة والمتكررة على لبنان وفيه.

إن ذاك التقرير لم ولن يكشف معدّوه عن تلك الأزمة البنيوية التي يعاني منها العقل الإسرائيلي، لكن قراءة فاحصة ومعمقة في نتائج هذا التقرير (وما سبقه من تقارير حول هزائم واخفاقات سابقة) تكشف عن تلك الأزمة البنيوية التي تفتح على أزمة وجودية بدأت ارهاصاتها منذ سنوات عديدة.